هاذم اللذات.. الموت

● الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كنا نتحدث عن التوبة، ووجدنا من عوائق التوبة طول الأمل... التسويف... استبعاد الموت، وهذه آفة قلما من سلم منها من الناس، ولهذا كان العلاج لهذا أن يذكر الناس الموت، وقد أوصانا رسول الله ﷺ بذلك حينما قال: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت»[1]، وهو الذي يهذم اللذات ويقطعها، ويفرق الناس عنها.

لا بد من ذكر الموت، هذه حقيقة يهرب الناس منها، ويحاولون أن يبعدوها عن أذهانهم وقلوبهم، وأن يعيشوا ليومهم دون أن يتفكروا في غدهم، ولحياتهم دون أن يذكروا موتهم، ولدنياهم دون أن يذكروا آخرتهم، حتى أن أكثر الوعاظ والخطباء، أصبحوا اليوم لا يذكرون الناس بهذه الحقائق، بمعاني الآخرة، بالموت وما بعده، ومعظم أحاديثهم عن مشكلات المجتمع، عما يعانيه الناس، ولا بأس بذلك، ولكن لا يعني هذا أن تغفل هذه الحقائق الروحية، وأولاها: أن الناس ولدوا ليموتوا.

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى التراب!

لهذا كان لا بد من التذكير بالموت، وقد عقد الإمام الغزالي كتاباً في

---

(١) أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وإسناده حسن، وله شواهد يصح بها (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٥/ ٢٦١).

إحيائه، في آخر (ربع المنجيات): من الإحياء[1]، كتاب: (ذكر الموت وما بعده) قال في مطلعه: جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلاّ في الموت، ولا ذكر إلاّ له، ولا استعداد إلاّ لأجله، ولا تدبير إلاّ فيه، ولا تطلع إلاّ إليه، ولا تعريج إلاّ عليه، ولا اهتمام إلاّ به، ولا حول إلاّ حوله، ولا انتظار وتربص إلاّ له[2].

جدير بالإنسان ـ وهذا مصيره... وتلك عاقبته ـ أن يتفكر في هذا المغير، الذي يغير عليه فجأة، ويهاجمه بغتة، وأن يجعل من ذكره جلاء لقلبه من صدأ الغفلة والقسوة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: تلاوة القرآن وذكر الموت»[3]، لقد ترك فينا النبي ﷺ واعظين بليغين: ناطقاً وصامتاً، فالناطق هو القرآن، والصامت هو الموت!.

لا يعرف أحد متى يأتي الموت، ولا أين يكون الموت: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وكذلك، لا تدري أي زمن تموت: أتموت شاباً، أم تموت كهلاً، أم تموت شيخاً؟ قد تبقى إلى السبعين، وقد تبقى إلى المائة، وقد تتجاوز المائة، وقد تختطف في ريعان شبابك ومقتبل عمرك، قد تكون هذا وقد تكون ذاك، المهم أنه ليس عندك صك بموعد الموت، ولا تعرف متى يزورك (عزرائيل).

كم اختطف الموت أباً من بنيه، وابناً من أبيه، وأخاً من أخيه، وقريباً من

---

(١) أسس الإمام الغزالي كتابه (إحياء علوم الدين) على أربعة أرباع وهي: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي، مذيلاً بتخريج الحافظ العراقي، ط. دار المعرفة ـ بيروت، (٤٤٨/٤).

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (الإحياء: ١/ ٢٧٣).

قريبه، وحبيباً من حبيبه، وقائداً من جنده، وأستاذاً من تلاميذه، فلم يستطع أحد أن يدفع عنه بنفس ولا مال ولا جاه.

إن الحبيب من الأحباب مختلس ... لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها ... يا من يعدّ عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلاً في النقص منغمساً ... وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ... ولا الذي كان منه العلم يقتبس

فالموت باب وكل الناس داخله، وكأس كل الناس شاربه، وحوض وكل الناس وارده، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٧]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قد تموت شاباً وقد تموت شيخاً، ولكن النتيجة واحدة، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ومسؤول عنه، عش مائة سنة، أو عش ألف سنة، أليس آخرها الموت؟.

وإذا كان آخر العمر موتاً ... فسواءٌ قصيره والطويل

وكل من يموت سيأتي ساعة الموت، ويقول: لو أني أُبقيت قليلاً لأزيد من عمل الصالحات، إن كان من أهل الصالحات! أو أعمل صالحاً إن كان من المفرطين! وهيهات هيهات... هيهات هيهات ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿١١﴾﴾ [المنافقون ـ ١١].

إذا جاء الأجل فلا تأخير: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، والساعة هنا ليست الساعة الفلكية... ستين دقيقة،

الساعة هي اللحظة من الزمن، لا يستأخر لحظة من الزمن ولا يستقدم. العمر أيام معدودة وأنفاس محدودة، لا بد أن تنتهي بالموت.

علامة الموت: الميلاد، إذا ولد الإنسان كان ذلك علامة على أنه سيموت، وكل يوم ينقضي من عمره، فقد طويت صفحة من كتابه، ولهذا نعجب من الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم، وكان الأولى أن يتفكروا في يوم الميلاد، قرب آجالهم، ونقص أعمارهم، فكل سنة تنقضي جدار يتهدم من بنيان العمر.

ونفرح بالأيام إما تصرمت   على أنها من عمرنا تتصرم
إنّا لنفرح بالأيام نقطعها   وكل يوم مضى جزء من العمر

كان الحسن البصري يقول: (يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجتمعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك)، أنت مجموعة أيام، كلما ذهب يوم ذهب جزء منك، حتى يذهب كلك.

الموت حوض مورود لكل الناس، لم ينج منه نبي، ولا ولي، ولا ملك، ولا أمير، لا أهل الدين ولا أهل الدنيا.

الأنبياء ذاقوا مرارة الموت، على ما لهم عند الله من عظيم المنزلة، قالوا: إن نوحاً عليه السلام، وهو أطول الأنبياء عمراً، عمر في الدنيا أكثر من ألف سنة، لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، عدا السنين التي قبل النبوة، والسنين التي عاشها بعد الطوفان[1]، وقد حكوا أن ملك الموت حينما جاءه ليتوفاه، سأله، يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدتها كدار لها بابان، ودخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر.

هكذا الدنيا، الأنبياء ذاقوا كأس الموت.

---

(١) يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

يوسف عليه السلام لقي في الدنيا ما لقي من محن ومنح، ثم أتاه الله الملك، وجعله على خزائن الأرض، ثم كان مصيره ما حكاه الله عنه بقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف: ١٠١]، وهذا ما ينبغي أن يفكر فيه المؤمن، أن يتوفاه الله مسلماً، وأن يلحقه بالصالحين، وهكذا كان المؤمنون يدعون: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، هكذا كان همهم.

وخير الأنبياء وخاتمهم وخيرة الله من خلقه: محمد ﷺ خاطبه الله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥]، وقال مخاطباً له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١].

كان رسول الله ﷺ يعاني سكرات الموت، وكان عنده قدح من ماء، فكان يأخذ منه، يمسح بهذا الماء وجهه ويقول: «اللهم أعني على غمرات الموت، أو على سكرات الموت»[1]، محمد ﷺ يدعو الله بهذا ويقول: «إنّي أوعك كما يوعك رجلان منكم»[2]، وبجواره ابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تبكي وتقول: واكرب أباه، فيقول لها النبي: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»[3].

---

(١) رواه الترمذي في الجنائز (٩٧٨) وقال: حسن صحيح غريب، وفي بعض النسخ: غريب فقط، وابن ماجة (١٦٢٣)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٥) وفي سنده عندهم: موسى بن سرجس، قال في التعريف: مستور.

(٢) متفق على صحته من حديث ابن مسعود (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط ٥/ ٢٤٣، حديث ١٤٣٢).

(٣) رواه البخاري وغيره من حديث أنس بن مالك في كتاب المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، الحديث (٤٤٦٢) (فتح الباري: ٧/ ٧٥٥) ط. دار الريان للتراث ـ القاهرة.

مات رسول الله ﷺ، ومات أصحابه.

أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حضرته الوفاة، فجسلت بجواره عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأنشدت قول القائل:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال لها أبو بكر مصححاً لها: ذاك رسول الله ﷺ، ثم أنشدت قول الشاعر، وكانت ممن يحفظ من الشعر الكثير:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

أي الروح إذا بلغت الحلقوم، فقال لها: بل قولي ما قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ٥٠]، وهو في هذا الوقت يصحح المفاهيم، ويقول لها: بدل على أن تذكري الشعر اذكري القرآن.

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان ذاكراً لربه في هذا الوقت، ذاكراً لكتابه، خائفاً من ذنبه، راجياً رحمة ربه.

دخل النبي ﷺ على شاب يحتضر فقال له: «كيف تجدك»؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلاّ أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف»(١)، ما دام الإنسان في مثل هذا الموطن، يرجو ويخاف، يرجو المغفرة ويخاف عاقبة الذنوب، فإن الله سبحانه وتعالى سيكون عند حسن ظن عبده به، سيؤمنه مما يخاف، ويعطيه ما يرجو.

ومرض أحد الصالحين مرض الموت، فعاده بعض أصحابه فقالوا له: أي

---

(١) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال: حديث غريب، وفي بعض النسخ: حسن غريب، ورواه ابن ماجة، وابن أبي الدنيا، وذكره الألباني في صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوي: ٢/ ٨٧٥، الحديث ٢١١٢).

شيء تشتكي؟ قال: اشتكي مما خلفت من ذنوبي، قالوا له: وأي شيء تشتهي؟ قال: لا أشتهي إلاّ مغفرة ربي، قالوا له، ألا ندعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب هو الذي أمرضني.

هكذا كانت قلوب معلقة بالله عز وجل، فكل ما يشغلها هو لقاء الله، وذنوبها التي خلفت، ومغفرة الله التي ترجوها.

الموت لم يدع نبياً، ولم يدع ولياً، ولم يدع خليفة، ولم يدع ملكاً، ولم يدع أميراً، ولم يدع غنياً، ولم يدع فقيراً، كلهم ورد حوض الموت.

قالوا: إن هارون الرشيد أصابه المرض، فعرض بوله على أحد الأطباء، وهو لا يعرف أن هذا للرشيد، فقال: صاحب هذا البول ميؤوس منه، وبلغ ذلك الرشيد، فقال:

إن الطبيب له علم يدل به   ما دام في أجل الإنسان تأخير
حتى إذا ما انقضت أيام مهلته   حار الطبيب وخانته العقاقير!

الطبيب إنما ينفع طبه ما دام هناك في الأجل متسع، ولكن إذا حان الأجل، إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء، وحار الأطباء، وكان لا بد من اللقاء.

أُعطي الشاعر ابن الرومي دواء غلطاً، فكان سبباً في موته، ولما لام الناس الطبيب الذي وصف له الدواء قال:

غلط الطبيب عليَّ غلطة موردٍ   عجزت موارده عن الإِصدار
والناس يلحون الطبيب، وإنما   غلط الطبيب إصابةَ الأقدار

الطبيب غلط، ولكن القدر لم يغلط، كان لا بد من أن يموت.

إذا جاء الموت لم ينفع طب، ولم ينفع دواء، ليس معنى هذا أن نترك الدواء، لا بأس أن نتداوى، فإن الذي أنزل الداء أنزل الشفاء، علمه من علمه،

وجهله من جهله[1]. ولكن الدواء ينفع ما دام في الأجل بقية، فإذا جاء الموت لم ينفع شيء.

نظر الرشيد إلى أكفانه فقال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩]، وابنه المأمون حينما جاءه الموت، كان يدعو الله ويقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه! وقالوا عن عبد الملك بن مروان: أنه حينما مرض مرض الموت، نظر إلى غسال كان يغسل الثياب بيده في دمشق فقال: ليتني كنت غسالاً، آكل من كسب يدي يوماً بيوم، ولم أل من أمر الدنيا شيئاً! فبلغ ذلك الإمام (أبا حازم) فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه!.

يتمنى هؤلاء عند الموت أن يكونوا غسالين أو عمالين، ولم يلوا أمر هذه الدنيا، ولا ملكها.

نظر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي يوماً إلى المرآة، فأعجبته صورته، وأعجبته نفسه، وقال في غروره: أنا الملك الفتى... الملك الشاب، ونظر إلى جارية له يبدو أنها من الصالحات، فقال: ما تقولين فيّ؟ فأنشدت تقول:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى   غير أن لا بقاء للإنسان!
ليس فيما رأيته فيك عيب   كان في الناس غير أنك فان!

هكذا الملوك، هكذا الخلفاء، هكذا الأغنياء[2].

---

(١) في الحديث عن ابن مسعود يرفعه: «إنّ الله عزوجل لم ينزل داء إلاّ أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله» أخرجه أحمد، وابن ماجة، وإسناده صحيح، وصححه البوصيري في زوائده، والحاكم، ووافقه الذهبي (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط ٤/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) من أراد معرفة المزيد من أخبار المحتضرين من الخلفاء والصالحين، فليرجع إلى كتاب: (ذكر الموت وما بعده) من (إحياء علوم الدين) للغزالي.

هل رأيتم أحداً استطاع أن يؤخر الموت يوماً، أو ساعة، أو بعض ساعة؟ هل استطاع ذو سلطان أن يرهب ملك الموت بسلطانه؟ هل استطاع غني أن يرشو (عزرائيل) بشيء من ماله؟.

لا والله، أخذهم الموت أخذاً، لم يدع كبيراً ولا صغيراً، ولا غنياً ولا فقيراً، ولا نبياً ولا ولياً، ولا ذا سلطان أو ذا ثروة، كلهم أكلهم الموت.

اذهب إلى المقابر، ماذا تجد فيها؟ اذهب إلى وادي الموتى، ستجد الكل متساوين في ظاهر الأمر، الكل قد ضمتهم القبور، تركوا القصور إلى القبور، تركوا النعيم إلى أعمالهم، إلى مجازاة الله سبحانه وتعالى.

هل يتذكر الناس ذلك؟ هل يتعظ الناس بالموت؟ هل يتعظ الناس بمن مات من آبائهم وأجدادهم وإخوانهم وأقربائهم وأحبائهم؟ كم ودعنا من الناس؟ كم ودعنا من أحبة؟ كم وذعنا من أقرباء؟.

ولكن الناس لا يذكرون الموت، كأنهم يظنون أنهم في الدنيا مخلدون، إنها الغفلة، إنه طول الأمل، وطول الأمل هو الآفة.

الموت قريب، وأقرب مما يتصور الناس، وكل آت قريب، قد يكون كلمح البصر أو هو أقرب، قد يأتي عليك الصباح ولا يأتي عليك المساء، وقد تمسى ولا تصبح، وقد تلبس الثوب ولا تستطيع أن تخلعه، وإنما تخلعه يد غاسلك، وقد تخرج من البيت حاملاً ولا تعود إليه إلاّ محمولاً.

هل نعرف هذا كله؟ هل نذكر الموت؟ هل يذكّر بعضنا بعضاً بالموت؟ إنّ الموت هاذم اللذات، ولكن الناس لا يذكرونه.

الموت قريب وقريب جداً، وخاصة في عصرنا الذي يختطف فيه الموت الناس وهم أصحاء، بالسكتة... بالذبحة... بآفة من الآفات المرضية التي أصبحت من آفات هذا العصر... بحادثة من حوادث الطرق، بهذا أو بغيره.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

الموت آت لا يستطيع أن يفرّ منه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ

مَلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الجمعة: ٨]، ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ما دام الأجل قد انتهى فالموت آت.

كان هناك وباء في بلد، فخرج ابن لأعرابي من هذا البلد فراراً من الموت الذي فيه، وذهب إلى بلد آخر، وفي الطريق أوى إلى ظل شجرة. فلدغته أفعى فمات، فقال أبوه:

راح يبغي نجوة ... من هالك فهلك
والمنايا راصدات ... للفتى حيث سلك
كل شيء قاتل ... حين تلقى أجلك

أجل، كل شيء قاتل، حين ينتهي الأجل، بعثرة طريق، بضربة شمس بأدنى شيء.

المهم أن تستعد للموت، كما جاء في الحديث: «الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت»(١)، الكيس: العاقل، من حاسبها، وعمل لما بعد الموت: أعد للأمر عدته، وأخذ له أهبته، حتى لا يسير بغير زاد.

تزود للذي لا بد منه ... فإن الموت ميقات العباد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

أترضى أن تسافر بغير زاد، وخصوصاً إذا كان رفقاؤك في السفر لا يعطونك من زادهم شيئاً؟ يوم القيامة لا يعطي أحد لأحد: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: ٣٣]، فهل أعددت زاد

---

(١) تتمة الحديث: «والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله» في إسناده (بقية ابن الوليد) وهو مدلس، ولكنه صرح بالتحديث، كما في حديث ابن ماجه، وهو عند الترمذي بإسناد آخر وقال: حديث حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوي: ٢/٨٦٩، الحديث ٢٠٩٠).

الآخرة؟ هل أَعَددت الزاد لما بعد الموت؟.

لا بد من أن نتذكر الموت، لا بد من أن نجعله نصب أعيننا: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[١]، بل من يدري لعلك تموت اليوم قبل الغد، فلا بد من أن توازن بين الدنيا والآخرة، وأن تأخذ من حياتك لموتك، ومن شبابك لهرمك، ومن صحتك لسقمك، هذا هو شأن الإِنسان المؤمن.

أكثروا من ذكر هاذم اللذات، أكثروا من ذكر الموت.

والناس صنفان:

صنف: يعيشون غافلين، لا يفكرون إلاّ في دنياهم... إلاّ في شهواتهم... إلاّ في مصالحهم العاجلة، لا ينظرون إلى الغد، ولا يفكرون فيما يأتي بعد، هؤلاء هم الغافلون، هؤلاء هم الذين لم تستيقن قلوبهم بالآخرة، لو كانوا موقنين بالآخرة لغيروا طريقة تفكيرهم.

وهناك صنف آخر، يعلمون أن مع اليوم غداً، وأن غداً لناظره قريب، وأن كل امرىء مصبح في أهله، والموت أقرب من شراك نعله، وأن الموت آت لا بد منه، لهذا يستعدون للموت، فإذا جاءهم لم يخافوا، ولم يحزنوا؛ لأنهم تهيأوا له، واعدوا له الزاد، ولأنهم يعلمون أن الموت ليس عدماً صرفاً، ولا فناء محضاً، لو كان الموت عدماً لم يخلقه الله، وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، لو كان الموت عدماً ما خلقه الله.

الموت مرحلة، مرحلة انتقال، كما جاء عن عمر بن عبد العزيز: إنما خلقتم للأبد (أي للخلود الأبدي) وإنما تنقلون بالموت من دارٍ إلى دار، من دار الغرور إلى دار السرور، أو الحزن، هي سرور لأناس وحزن على آخرين، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار المفر إلى دار المقر.

---

(١) صح هذا من كلام الصحابة رضي الله عنهم مثل ابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ولم يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وما الـمـوت إلاّ رحـلـة غـيـر أنـهـا   من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

هؤلاء لا يخافون الموت، إنهم يعلمون أنهم خلقوا للآخرة، خلقوا للخلود، وإلاّ ما كان لهذه الدنيا معنى، ولا كان لها طعم، لو كانت هي المقر، لو كان لا شيء بعد الموت، كما قال الدهريون: إن هي إلاّ أرحام تدفع، وأرض تبلع ولا شيء بعد ذلك: ﴿... نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ...﴾[1] [الجاثية: ٢٤] لو كان الأمر كذلك، لكانت الحياة كلها باطلاً، والله تعالى قد نفى ذلك وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٧ ـ ٢٨]. هيهات، لا يستوى المتقون والفجار، ولا يستوى المؤمنون والكفار، ولا يستوى الأخيار والأشرار، كل سيجزي بعمله.

فكروا في الموت، أذكروا هاذم اللذات، أذكروه عسى أن تترطب قلوبنا، وتلين في قسوتها، كان بعض السلف قد حفر في بيته حفرة أشبه بالقبر، كلما قسا قلبه نزل فرقد فيها، وأغمض عينيه، وخيل إلى نفسه أنه مات، ثم قال: ﴿... رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا...﴾[2] [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، ثم يفتح عينيه ويقول: ها يا نفس، ها أنت في الدنيا الآن فمالك لا تعملين؟.

أنتم في الدنيا ممكنون من العمل... أكثر من يغبطهم أهل القبور أهل المساجد، يقولون: ليتنا، نسبّح كما يسبّحون، ونذكر الله كما يذكرون، ونصلي كما يصلون.

اغتنموا العمر، اغتنموا الوقت، قبل أن يفوت الأوان.

---

(١) ونصُّها: ﴿وَقَالُوا مَا هيَ إلاّ حَيَاتُنَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاّ الدَّهْرُ، ومَالَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْم، إنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ﴾.

(٢) يتمثل قوله تعالى: ﴿حَتّى إذَا جَاءَ أحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارجعُون * لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ، كَلاّ إنّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا، وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن خشعت قلوبهم، ولانت أفئدتهم، وتذكروا آخرتهم، اللهم آمين.

أذكروا الله تعالى، واستغفروه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر. اللهم أعنا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، واجعل كلمة الإسلام هي العليا، وكلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] أقم الصلاة.